

## المحاضرة السادسة

### (تتمة الطور الثالث: طور التابعين وصغار الصحابة)

ذكرنا سابقاً أن تفرق الصحابة في الأمصار، أحدث مدارس متعددة في الفقه والاجتهاد تبعاً للبيئة التي استقروا بها، وتبعاً لتفاوت مداركهم وملكاتهم الاجتهادية، ودرجاتهم في تحصيل الأحاديث، فالصحابه الذين استقروا بمكة والمدينة كانوا أكثر حفظاً للأحاديث؛ لملازمتهم النبي صلى الله عليه وسلم في كل أحواله، وبيئتهم أسلم من الفتن والطوائف والمذاهب الفلسفية، وأسسوا بذلك نواة ما يعرف ب: (مدرسة الحجاز) وتسمى كذلك: (مدرسة الحديث أو الأثر).

وأما من استقر منهم بالعراق، فكانوا يميلون إلى الاجتهاد أكثر، وعدم الاعتماد على الأحاديث التي تروى بالكوفة والبصرة، لشيوع الكذب والوضع فيها، فكانوا لا يقبلون من الحديث إلا ما يعرفون، ولا يقبلون السماع إلا من الثقات، وبذلك أسسوا ل (مدرسة العراق أو مدرسة الرأي)

وتوارث التابعون العلم عن هؤلاء الصحابة وتأثروا بمنهجهم الفقهي، كل حسب موطنه ودار إقامته،

**فأهل المدينة** تأثروا بفتاوى سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأهل مكة بفتاوى سيدنا عبد الله بن عباس، وأهل الكوفة أو العراق، بفتاوى سيدنا عبد الله بن مسعود. قال ابن القيم رحمه الله :

“والدين والفقه والعلم انتشر في الأمة عن أصحاب ابن مسعود، وأصحاب زيد بن ثابت، وأصحاب عبد الله بن عمر، وأصحاب عبد الله بن عباس؛ فعلم الناس عاقبته عن أصحاب هؤلاء الأربعة، فأما أهل المدينة فعلمهم عن أصحاب زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر، وأما أهل مكة فعلمهم عن أصحاب عبد الله بن عباس، وأما أهل العراق فعلمهم عن أصحاب عبد الله بن مسعود”<sup>1</sup>

1 - أعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، 38/2، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، السعودية، طبعة أولى: 1423هـ

## مدرسة الحجاز أو الحديث:

موطنها ومستقرها بالحجاز (مكة والمدينة) ، وتسمى من باب التغليب: مدرسة المدينة، أو مدرسة الحديث أو الأثر، وسميت بذلك لتمسكها بالحديث وبآثار الصحابة وأقضيتهم، وعدم اللجوء إلى الرأي والاجتهاد إلا في النادر من الأحوال.

ووقع التنافس بين مدرسة الحجاز ومدرسة العراق، في أيهما أولى بالسنة والحديث، فأهل المدينة يقولون بأنهم هم ورثة الحديث الشريف، والنبى صلى الله عليه وسلم قد مات بين أظهرهم، فهم أولى به وأحفظهم له، ويردون أحاديث العراقيين ولا يثقون بها، بسبب ما ظهر فيهم من الطوائف، وأمم شتى من الزنادقة والفلاسفة. أما أهل العراق فيقولون بأن أحاديثهم أكثر، وأجود؛ لأن العراق أصبحت دار الخلافة الإسلامية في عهد الخليفة علي كرم الله وجهه، وإليها هاجر كبار الصحابة الحفاظ الثقات؛ كعبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود.

ونجد الفقيه الحجوي رحمه الله يعطي توجيهها دقيقا لمسألة رد المدنيين لأحاديث العراقيين؛ وأن ذلك لم يكن لمجرد نسبة الحديث وانتمائه لجهة العراق فقط، وإنما ذلك مقيد ومحمول على أحاديث من لا يعرفون، وأصحاب الأهواء والبدع، وأما الثقات من أهل العراق فكانوا يقبلون أحاديثهم من غير تردد، قال رحمه الله:

(... وعلى كل حال فالمدينة المنورة محل الجمهور من الصحابة وكبار التابعين، فإن النبي صلى الله عليه وسلم بعد رجوعه من حنين ترك بها اثني عشر ألفاً من الصحابة، مات بها عشرة آلاف، وتفرّق ألفان في سائر أقطار الإسلام، هكذا قال مالك وغيره، ... وروى عنه ابن وهب قال: كان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى أهل الأمصار يعلمهم السنن والفقهاء، ويكتب إلى أهل المدينة يسألهم عمّا مضى، وأن يعلموه بما عندهم، كتب إلى أبي بكر بن حزم أن يجمع السنن ويكتب بها إليه،

فتوفي عمر وقد كتب ابن حزم كتباً ولم يبعث بها إليه بعد، وكان أبو بكر هذا قاضيًا بالمدينة، ثم كان واليًا بها.

وقال: إذا رأيت أهل المدينة مجتمعين على أمر فلا شك أنه الحق، فكان أهل الحجاز يرون أن حديثهم مقدّم على غيرهم، بل يرون أن حديث العراقيين أو الشاميين إذا لم يكن له أصل عند الحجازيين فليس بحجة، حتى قال قائلهم: "نزلوا حديث العراقيين منزلة حديث أهل الكتاب لا تصدقوهم ولا تكذبوهم"... وقال ابن شهاب الزهري: "يخرج الحديث من عندنا شبرًا فيعود في العراق ذراعًا". ومثل هذا من المدنيين في ذم العراقيين كثير، لكنه محمول عندي على أهل الأهواء؛ لأنها دار الخوارج ومنبع الشيعة ومستقر البدع، أما أهل السنة ففيهم علم وفضل وسنة، ولذلك اتفق الجمهور على ترك التضعيف بهذا، فمتى كان الإسناد جيدًا كان الحديث حجة حجازيًا أو عراقياً أو شامياً أو غيرها، وكم من حديث في الصحيحين المجمع على قبول ما فيهما كل رواته عراقيون، لكن أحاديث المدنيين أقوى.<sup>2</sup>

والإمام ابن القيم رحمه الله يصف أيضاً أحاديث المدنيين بأنها: (أم الأحاديث النبوية، وأشرف أحاديث أهل الأمصار، ومن تأمل أبواب البخاري وجده أول ما يبدأ في الباب بها ما وجدها، ثم يتبعها بأحاديث الأمصار).<sup>3</sup>

شيوخ مدرسة المدينة من الصحابة:

<sup>2</sup> - الفكر السامي، 379/1

<sup>3</sup> - إعلام الموقعين، 176/1

منهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي بن أبي طالب قبل أن ينقل الخلافة إلى العراق، وزيد بن ثابت، وعائشة، وأم سلمة، وحفصة، وبقية أمهات المؤمنين، وعبد الله بن عمر، وأبي بن كعب، وعبد الرحمن بن عوف، وأبي هريرة.

### تلامذتهم من التابعين:

ذكرهم الإمام ابن القيم بقوله:

(وكان المُفتونَ بالمدينة من التابعين : سعيد بن المسيَّب،(ت94هـ)<sup>4</sup> وعُروة بن الزُّبير(ت94هـ)<sup>5</sup> والقاسم بن محمد(ت106هـ)<sup>6</sup>، وخارجة بن زيد(ت100هـ)<sup>7</sup>، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام(ت94هـ)<sup>8</sup>، وسليمان بن يسار(ت107هـ)<sup>9</sup>، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود(ت98هـ)<sup>10</sup>، وهؤلاء هم الفقهاء السبعة، وقد نظمهم القائل، فقال :

4 - المخزومي القرشي المدني، رأس علماء التابعين، ومن الطراز الأول، جمع الحديث إلى الفقه، والزهد والعبادة والورع، سمع من عمر وهو راويته وحامل علمه، كما في أعلام الموقعين، وحديثه عنه في السنن الأربعة، وروى عن علي، وعثمان، وسعد بن أبي وقاص، وأبي هريرة، وغيرهما من أعلام الصحابة، دخل على أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- وسمع منهن، وكان زوج بنت أبي هريرة، وحافظ المسند من حديثه، أفقه أهل المدينة وأعلمهم بقضايا أبي بكر وعمر وعثمان، وأعلمهم بما مضى عليه الناس، وبقضايا رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

5 - عروة بن الزبير بن العوام الأسدي: تفقّه على خالته عائشة، حافظ ثبت، أغزر الناس حديثًا، وهو ممن أجمع على جلالته.

6 - القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق: تفقّه على عمته عائشة أيضًا، وهي التي ربه، وقال أبو الزناد: ما رأيت فقيهاً أعلم من القاسم، وما رأيت أحدًا أعلم بالسنة منه.

7 - خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري النجاري: أحد الفقهاء السبعة، أدرك زمن عثمان بن عفان، وروى عن أسامة بن زيد بن خارجة، وأبيه زيد بن ثابت، وسهل بن سعد الساعدي، وعبد الرحمن ابن أبي عمرة، وأمه أم سعد بن الربيع، وأم العلاء الأنصارية.. ذكره محمد بن سعد في الطبقة الثانية من أهل المدينة

8 - قال ابن سعد: ولد في خلافة عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وكان يقال له: راهب قريش لكثرة صلاته، روى عن أبي رافع مولى النبي - صلى الله عليه وسلم -، وأبي مسعود الأنصاري، وأبي هريرة، وعائشة، وأم سلمة، وآخرين .

9 - سليمان بن يسار مولى ميمونة أم المؤمنين، روى عن جابر بن عبد الله، وحسان بن ثابت، ورافع بن خديج، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعروة بن الزبير، والفضل بن عباس، والمقداد بن الأسود، وأبي رافع مولى النبي - صلى الله عليه وسلم -، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وعائشة أم المؤمنين، وفاطمة بنت قيس، ومولاته ميمونة، وأم سلمة زوج النبي - صلى الله عليه وسلم -، وآخرين كثيرين.

10 - قال الزهري: كنت أطلب العلم من ثلاثة: ابن المسيب وكان أفقه الناس، وعروة وكان بحرًا لا تكدره الدلاء، وعبيد الله، ولا تشاء أن تجد عنده طريقة من العلم لا تجدها عند غيره إلا وجدتها. وكان أحد فقهاء المدينة، تابعي، ثقة، رجل صالح، جامع للعلم، وهو معلم عمر بن عبد العزيز .

إذا قيل مَنْ في العلم سَبَعَة أَبْحُرٍ \*\*\* رَوَيْتَهُمْ لَيْسَتْ عَنِ الْعِلْمِ خَارِجَةٌ

فقل: هم عُبَيْدُ اللَّهِ، عُرْوَةُ، قَاسِمٌ، \*\*\* سَعِيدٌ، أَبُو بَكْرٍ، سُلَيْمَانٌ، خَارِجَةٌ

(وبعد هذه الطبقة):

أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف (ت94هـ)، وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، المعروف ب: علي السجاد (ت95هـ)، وأبَانُ بن عثمان بن عفان (ت105هـ) ، وسالم بن عبد الله بن عمر الخطاب (ت106هـ)، ونافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب (ت117هـ)، وغيرهم.

(وبعد هذه الطبقة):

منهم: أبو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين المعروف بالباقر (ت114هـ)، وأبو الزناد عبد الله بن ذكوان (ت121هـ)، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزُّهْرِي (ت124هـ)، ويحيى بن سعيد الأنصاري (ت146هـ)، ومحمد بن المُنْكَدِر (ت130هـ)، وربيعه بن أبي عبد الرحمن الملقب بريعة الرأي، شيخ الإمام مالك، (ت136هـ)، وغيرهم.

ومن المذاهب الفقهية التي تأثرت بمدرسة أهل الحديث: مذهب الإمام مالك، ومذهب الشافعي، ومذهب الإمام أحمد بن حنبل، والمذهب الظاهري.

### مدرسة العراق، أو مدرسة الرأي:

سميت بمدرسة الرأي لكثرة أخذهم بالرأي والاجتهاد في المسائل، بسبب النوازل والحوادث الطارئة في مجتمع الكوفة والبصرة، وشيوع الكذب والوضع فيها، وقلة الأحاديث الصحيحة عندهم مقارنة مع أحاديث المدنيين، وتأسست على فقه الصحابة الأجلاء: سيدنا عمر بن الخطاب، وعلي بن

أبي طالب، وأبي موسى الأشعري، وسعد بن أبي وقاص، ثم من بعدهم: سيدنا عبد الله بن مسعود الذي ورث فقه عمر بن الخطاب<sup>11</sup>، ثم تتلمذ على ابن مسعود جملة من التابعين، اشتهر منهم:

### الفقهاء الستة:

علقمة بن قيس النخعي(ت62هـ)، ومسروق بن الأجدع الهمداني (ت63هـ)، وعمرو بن شرحبيل الهمداني (ت63هـ)، والحارث الأعور (ت65هـ)، والأسود بن يزيد النخعي (ت75هـ)، وشريح بن الحارث القاضي(ت78هـ).

ثم من بعدهم:

إبراهيم النخعي(ت96هـ)، ومنصور بن المعتمر السلمي (ت132هـ)، والحسن البصري (ت110هـ)، وسليمان بن مهران الأعمش (ت148هـ)، وغيرهم.

وعلى يدي ابراهيم النخعي تخرج حماد بن أبي سليمان(ت120هـ)، شيخ أبي حنيفة النعمان، ومن المذاهب الفقهية التي تأثرت بمدرسة العراق: مذهب أبي حنيفة، ومذهب سفيان الثوري.

### مميزات الفقه في طور التابعين:

\* التكامل بين مدرستي الحجاز والعراق، وقلة الاختلاف بينهما:

إن انقسام الفقه في عهد التابعين إلى مدرستين كبيرتين: مدرسة الحجاز ومدرسة العراق، إنما هو انقسام تنوع وتكامل، وليس انقسام تضاد وتنافر، فغلبة الرأي والقياس والاجتهاد على فقهاء العراق فرضته البيئة الجديدة في الأراضي الإسلامية المفتوحة، وتزايد القضايا والنوازل التي لم تكن معروفة في العهد النبوي وعصر الخلافة الراشدة، وكثرة الجدل والمناظرات الفلسفية، والصراعات الطائفية والعقائدية المنتشرة في كبريات المدن والحواضر العراقية، كالبصرة والكوفة، وشيوع الوضع والكذب فيهما، وقلة الأحاديث الصحيحة بهما.

11 - يلاحظ هنا أن مدرسة الرأي وإن كانت العراق محل نشأتها، فإن منهجها تأسس على يد بعض صحابة المدينة المنورة الذين غلب عليهم طابع الاجتهاد والنظر، والغوص في علل النصوص ومقاصدها، كعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود.

أما أهل المدينة فكانوا في مأمن من تلك الفتن، وكان لهم من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وإجماع الخلفاء الراشدين، وأقضيةهم، وأقوال الصحابة، ما يغيثهم عن الاجتهاد والاعتماد على الرأي؛ إلا في النادر من الأحوال.

وما سوى هذا العامل؛ (أي اختلاف البيئة) فإن كلا المدرستين تجتمعان في أصل واحد، وهو الالتزام بأصول الشريعة ومصادرها النقلية المعروفة: القرآن الكريم، ثم السنة النبوية الصحيحة، ثم إجماع الصحابة، ثم يختلفون بعد ذلك في المصادر الاجتهادية الأخرى، اختلافاً يسيراً من حيث التقديم والترجيح، كالقياس، وقول الصحابي، فأهل المدينة يقدمون قول الصحابي فيما لا مجال للرأي فيه، ولم يعلم له مخالف، لاحتمال أن يكون قد سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم؛ فيجعلونه في مرتبة الخبر، ويقدمونه على القياس، وأهل العراق يقدمون القياس إذا لم يجدوا حديثاً صحيحاً، ثم يرجحون بين أقوال الصحابة في المسألة حسب ما تقتضيه المصلحة. وبحسب ما جرت به الفتوى عند علماء أهل كل بلد.

ثم إن نسبة الأثر إلى أهل المدينة، ونسبة الرأي إلى أهل العراق، إنما هي من باب التغليب فقط، وإلا فإننا نجد مدرسة العراق قد تأسست على فقه صحابة المدينة ومنهجهم الفقهي، كعمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وإن كانوا يميلون إلى النظر والاجتهاد، وعدم الوقوف عند ظواهر النصوص، فإنهم كانوا أيضاً من أوعية الحديث وحفاظه، فتزود منهم أهل العراق بهذه الثروة الحديثية التي لم تكن عندهم، واستعانوا بها في الفتوى والاجتهاد، وكذلك أهل المدينة قد استفادوا من المنهج الفقهي العراقي المبني على النظر والاجتهاد فيما لم يجدوا فيه نصاً، فهذا ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ القرشي التيمي (ت136هـ) مفتي المدينة وعالمها، لقب بريعة الرأي، لكثرة ما كان يستعمل الرأي والقياس، مع سعة حفظه للحديث وآثار الصحابة، وتلقى عنه أئمة المذاهب من كلا المدرستين، خاصة الإمام مالك وأبو حنيفة.

### ● غلبة الموالي في ميدان الفقه وتفوقهم على العرب:

الموالي جمع: مولى، أي الحليف، وهو الذي ليس من صلب نسب القبيلة، وإنما ينتمي إليها إما بعقد أو حلف، ويسمى: (مولى الحلف)، وقد كان من عادة العرب قديماً أن تدخل القبائل الصغيرة

أو الضعيفة تحت حلف قبيلة أخرى أقوى منها طلباً للحماية، وهناك: (مولى العتق) وهو العبد الذي ينتسب بنسب مُعتقه بعد فك رقبتة. ثم شاع إطلاق الموالي بعد الفتوحات الإسلامية؛ خصوصاً في العهد الأموي على الذين دخلوا في الإسلام من غير العرب؛ كالفرس والأتراك وغيرهم.

قَالَ ابن جرير الطبري في تفسيره: (أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: {وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي} النساء: 33، قَالَ " : الْمَوَالِي: الْعَصَبَةُ، هُمْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْمَوَالِي، فَلَمَّا دَخَلَتِ الْعَجْمُ عَلَى الْعَرَبِ لَمْ يَجِدُوا لَهُمْ اسْمًا، فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فِإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ} الأحزاب: 5، فَسُمُّوا الْمَوَالِي).<sup>12</sup>

واستطاع المسلمون من الموالي في عهد التابعين منافسة إخوانهم من العرب على شرف طلب الفقه والحديث حتى صارت لهم فيه الرئاسة والإمامة، روى ابن القيم رحمه الله عن عبد الرحمن بن زَيْد بن أسلم قال: (لما مات العبادلة - عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص-؛ صار الفقه في جميع البلدان إلى الموالي؛ فكان فقيه أهل مكة: عطاء بن أبي رباح، وفقيه أهل اليمن: طاوس، وفقيه أهل اليمامة: يحيى بن أبي كثير، وفقيه أهل الكوفة: إبراهيم، وفقيه أهل البصرة: الحسن، وفقيه أهل الشام: مكحول، وفقيه أهل خراسان، عطاء الخراساني، إلا المدينة فإن الله خصها بقرشي، فكان فقيه أهل المدينة سعيد بن المسيب غير مُدافع)<sup>13</sup>.

<sup>12</sup> - تفسير الطبري، سورة النساء، القول في تأويل قوله تعالى: "ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والاقربون" الآية. ج6 ص:672

<sup>13</sup> - إعلام الموقعين، 41/2.